كلمة الأستاذ الشاذلي القليبي في حفل تسلّمه الوشاح الأكبر لدولة فلسطين

بكلّ امتنان، أتسلّم هذه الهديّة السنيّة، من الصديق العزيز، رئيس دولة فلسطين الحُرّة، المناضل الكبير محمود عبّاس.

وإنّي لَمُعتزّ، حقّا، بهذه اللفتة الكريمة، التي تفضّل بها الأخ أبو مازن، لِما أكنُّ لِسيادته من مشاعر الودّ والتقدير. ثمّ إنّ مكانة فلسطين، لدى كلّ تونسي، مكانةُ الوطن الثاني، غيرةً وحماسا، لِما غرسَه فينا، منذ شبابنا،"حزب الأمّة" الذي اعتبر دوما أنّ ما ألمّ بفلسطين إنّما هو ضربٌ من الاستعمار الاستيطاني، بفعل وافدين من أصقاع مختلفة، زعموا أنّهم أتوا لاسترجاع إرث العهود الخوالي. لذلك كُنّا نرى أنّ ما أصاب فلسطين لا يختلف، جوهريّا، عمّا أحاط بالكثير من أقطارنا، مشرقا ومغربا، بِزحف مستعمرين أوروبيّين، هبّوا لاحتلال ما كان، قبل قرون، تحت سيطرة دُولهم.

فبهم اقتدَى هؤلاء الذين تسمَّوا بالصهاينة ؛ فزحفوا، من أوروبا وآسيا وحتّى من أمريكا، على بلاد المقدس، وفرضوا سيطرتهم على ما أعلنوا أنّه "أرض بلا شعب".

لذا، نعتبر في تونس أنّ تضامن الشعب التونسي مع شقيقه الفلسطيني مُستَنِدٌ، لا فقط إلى الاشتراك في الانتماء الحضاري ؛ هو نَابع، أيضا، مِنَ الشعور بالتشابه فيما ألمّ بهما من مِحَن، جَعَلتْ كِلَيهما، في فترة من التاريخ، ضحيّةً لِسيطرةٍ آتيةٍ من الخارج، مكّنت من احتلال الأرض، والاستبداد بالحُكم، ومعاملةِ أهل البلاد وكأنّهم هم الغُرباء.

فأُخُوّةُ شعبَينا، التونسي والفلسطيني، أُخُوّةٌ في المَحْتِد والانتماء الحضاري، لا شكّ، لكنّها، أيضا، أُخُوّةُ كفاح من أجل الحُرّية والكرامة، أسّس لها، في نفوس التونسيّين، مَن اتّفقت كلمتُهم، على اعتباره "المجاهدَ الأكبر".

أشرتُ بذلك إلى زعيم تونس، الخالدِ الذِكر، الرئيس الحبيب بورقيبة، الذي كان يُكنُّ للشعب الفلسطيني كلَّ تعاطف، ولِقادته كلّ محبّة وتأييد، في طليعتهم الشُهداء أبو عمّار وأبو إياد وأبو جهاد – أسكنهم الله فراديس الجِنَان ؛ وكان أيضا يَلْقَى، لديه، عالِيَ التقدير والودّ، مَن اعتَبَرَهُما لا "فرسَي رهان" بل فرسَي جهاد : أبو لطف وأبو مازن، لِما بينهما من تكامل في الرُّؤى، ومن ترابط في غايات الكفاح.

وإذ أُذَكِّر، في هذا الملإ، بالزعيم الحبيب بورقيبة، فمِن الواجب أيضا أن أؤكّد أنّه هو الذي وجّه كفاح التحرير، في تونس، إلى النهج السياسي المقترن بكسب تأييد الرأي العام الدُولي ؛ وهو أيضا الذي أضفى عليه مَسحةً أخلاقيّة، إذ أعلن أنّ الكفاح من أجل الاستقلال إنّما هو كفاح في سبيل قِيم إنسانيّة عالية، تجتمع شعوبنا المكافحة، تحت مظلّتها، مع سائر شعوب العالم، المستقلّة منها والمُولـى عليها. فكان من اجتهاداته، التي اشتهر بها، أنّه ما فتىء يُوصي القادة الفلسطينيّين بالتوجّه إلى الرأي العام الدُولي، لإقناعه بمشروعيّة كفاحهم، من أجل إقامة دولةٍ مستقلّة – حسب ما جاء به قرار الأمم المُتّحدة، رغم ما انطوَى عليه من ظلم، في حقّ الشعب الفلسطيني.

ولكن الظروف العربيّة لم تكُن، إذّاك، لِتجعل الإخوان الفلسطينيّين يتجاوبون مع هذه النِظرة "البراڤماطيّة" ؛ الأمر الذي أدّى إلى مضاعفات، مكّنت إسرائيل من إحكام سيطرتها على أغلب التراب الفلسطيني

ولم يُكتب للنِظرة البورقيبة أن يُؤخذ بها، إلاّ بعد أن كادت تَعُمُّ البلوى بالسيطرة الإسرائيليّة : كان ذلك في قِمّة فاس الثانية، حيث تَمّتِ المصادقة على المقترح السعودي بالركون إلى الشرعيّة الدُوليّة.

واليوم أيّها السيّدات والسّادة – والأوضاع الدُوليّة على وشك أن تشهد تطوّراتٍ جديدة لا يُمكن لأحد التكهّنُ بمداها – فالواجب يدعونا إلى اتّخاذ السلاح النافذ المفعول، في كلّ الظروف : أعني العمل من أجل النهوض الحضاري بكلّ أجزاء أمّتنا العربيّة، لإخراجها جميعا من التخلّف، كُلّيةً، ولإكسابها القدرةَ على الذود عن حياضها بجهود أبنائها، حتّى يكون لها الكلمةُ المسموعة، في المحافل الدُوليّة.

لكن لا يتسنّى لنا بلوغ هذه المنزلة، بمواصلة التقليد والاقتداء والاقتباس : فنبقى بذلك، دوما، تحت الوصاية المباشرة أو المعنويّة.

ثمّ إنّ قضيّتنا المركزيّة، لن تستطيع دُولنا أن تدافع عنها الدفاع المُجدي، إلاّ إذا كانت مجتمعاتنا على درجة، من التطوّر الحضاري، تجعلها محلّ احترام دُوليّا، وتَقيها مهانةَ أن تشهد دُون حراك هجرةَ جموع من أبنائها، جِئِيّا على أعتاب دُول أجنبيّة، مستجْدِين لُقمةَ الخبز المُرّ، أو متسوِّلين أمن الهُون.

إنّه لا سبيل لنا إلى بلوغ القدرة الذاتية، دُوليّا، إلاّ إذا حرّكنا، في شعوبنا، الساكن من الفضائل الأخلاقيّة، والمنسيَ من المكارم الاجتماعيّة، التي بها، جميعا، كان إشراقُ حضارتنا العربيّة الإسلاميّة والتي سمّاها الراغب الأصفهاني "مكارم الشريعة" : قد تُنُوسِيت في عهود الانحطاط والتخلّف. وها هي اليوم تُداسُ بممارسات، منْسوبة إلى شراذم يدّعون الإسلام مذهبًا : فيُشوِّهون سمعتَه – والإسلامُ منهم براء، ومن سائر تُرَّهاتم المُنافية لِمناهجه الحضاريّة.

لذلك أُهيبُ بكلّ مجتمعاتنا أن ِ تُوثِّق التعاون بينها، من أجل إحياء مكارم حضارتها العربيّة الإسلاميّة، باعتبارها هي التي أسّست لِكَرَم بني آدم – في قوله تعالى »ولقد كرّمنا بني آدم« ؛ وهي التي وضعت النموذج الحضاري للتضامن بين الأمم : ففتحت أبواب الإجتهاد، وأعلت دَوْر العقل، وأمرت بطلب العِلم ؛ وأوصت بإقامة الشُورى، لِتمكين الشعب من أن يقول كلمته ؛ وجعلت العملَ في سبيل التضامن بين فئات المجتمع من أوكد أسباب المناعة الوطنيّة. فأقامت بذاك القِدوة على تضافر الجهود الأمميّة، لإبداع حضارةٍ في خدمةِ الإنسان، تُعنَى بإعلاء الحقّ، وفتْح طاقات الفكر، وبثّ أنوار الثقافة.

حضرات الإخوان،

ليكون لِدُولنا عمل مُجد، في المحافل الدُوليّة، ولِتقوى أمّتُنا على إثبات مصالحها، والذود عن قضاياها، فإنّ خيرُ منهج في ذلك، إحياءُ مكارم حضارتنا الأصلية، التي ذكرتُ البعضَ منها، والتي بفضلها يُمكن لِدُولنا أن تصرّف شؤونها الرئيسيّة دُون وُقوع تحت أيّ وصاية، لا من قريب ولا من بعيد.

وإنّي أهيبُ أيصا بمنظّماتنا المختصّة، جميعا – السياسيّة منها والثقافيّة والإقتصاديّة – أن تتعاون، لِبيان معالم الطريق إلى تركيز الكرامة، بواسطة إنشاء أسباب الإكتفاء الإقتصادي، لسائر مجتمعاتنا، وإقامة القدرة على تحقيق أركان المَنَعة، السياديّة منها والأمنيّة والحضاريّة، لمجموع دُولنا ومجتمعاتنا.

بذلك تقدر دُولنا على دعم كفاح الشعب الفلسطيني، الدعمَ الذي يُمكّنه من إعلاء كلمته، ويُجنّبه مزالق السوء، ويضمن له بلوغ أهدافه الشرعيّة.

وبذلك، إذن، يحقّ أن يُرجَى ارتدادُ الصهيونيّة، متبرةً أعمالـُها، وباطلا ما تدَّعي.

أختم كلمتي بتجديد الشكر لأخي أبو مازن، مع التوجّه بالتحيّة إليه وإلى سائر إخوانه المجاهدين، مقدّرا لِتضحياتهم العظيمة، ومشيدا بما يتحلّون به من خصال، في قيامهم بجهاد إنّما يبتغون به إعلاء كلمة الحقّ، والذودَ عن قِيم الإنسان في فلسطين.